شهادات حية لمظاهر وأساليب التعذيب بمنطقة ورقلة خلال الثورة التحريرية

د. رضوان شافو

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية– جامعة الشهيد حمة الأخضر / الوادي

مقدمة:

إن عمليات التعذيب والتنكيل التي مارستها السلطة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر لم تبدأ في الجزائر مع مجازر الثامن ماي 1945م، ولا مع ثورة أول نوفمبر 1954م، ولا مع بداية الاحتلال،وإنما هي طبيعة متأصلة في ذات الفرنسيين بوجه خاص والأوروبيين بوجه عام في ثقافتهم،إذ تجعلهم يحتقرون الشعوب التي لا تشاركها في جنسها وثقافاتها ودينها ولذلك تهينهم وتذلهم،إن لفرنسا في مستعمراتها تاريخ متعدد الحلقات يخلد جرائمها ضد الإنسانية سواء في الجزائر،أو في مستعمراتها ما وراء البحار،وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى تعطش الاستعمار الفرنسي للدم،وقد شهد شاهد من أهلها عندما قال الكاتب الفرنسي فرانسيس جانسون :" إن كلمة استعمار قبل أن تكون جريمة بشعة في حق الشعب الجزائري فهي في حد ذاتها جريمة ضد الإنسانية "1،وهو ما أكده المؤرخ احمد رضوان شرف الدين نقلا عن جريدة المجاهد في قوله:" إن الممارسات الوحشية حقا التي برزت منذ الفاتح نوفمبر 1954م تثير الدهشة لما صارت عليه من التعتيم أكثر من أي اعتبار...في الحقيقة، يجد سلوك الجيش الفرنسي في الجزائر مكانه ضمن بنية السيطرة البوليسية والعنصرية الشاملة ونزع إنسانية الإنسان بصورة عقلانية،فالتعذيب جزء من الكل الاستعماري...والاستعمار الذي لا يجيز التعذيب والاغتصاب والإبادة هو استعمار غير قابل للفهم".2

أولاً/ مراكز التعذيب ووسائله:

لقد أنشأت السلطة الفرنسية عبر مناطق الوطن مراكز للسجون والمعتقلات الاستعمارية ومخابر للتعذيب والاستنطاق والإعدام،وكانت هذه المراكز في مجملها تهدف إلى خلق الرعب في نفوس الجزائريين،والإبقاء عليه بصفة دائمة من جهة

ومحاولة إخماد ثورة التحرير الوطني وذلك بضرب تنظيماتها وعناصرها من جهة أخرى،وعلى سبيل

المثال أنشأت فرنسا في أواخر 1956م ضمن وحدات جيشها مصلحة عسكرية للاستخبارات أطلقت عليها اسم " المفرزة العملية للوقاية " ومع مطلع العام الموالي صارت هذه المصلحة عملية في الميدان،وتتمثل مهمتها في تفكيك شبكات جبهة التحرير الوطني بكل الوسائل المتاحة وخاصة منها التعذيب بأبشع أساليبه القديمة.وفي خريف 1959م عرفت المصلحة إعادة تنظيم فسميت بـ" كتائب المدفعية" وهي تسمية وهمية الهدف منها تضليلي بحت لإبعاد الاشتباه بحقيقة مهمتها الخاصة،ويمكن القول أنه بإنشاء هذه المصلحة انتقل التعذيب إلى مرحلة عقلانية وفعالة وفنية وصناعية.

وقد جاء في مقال منشور بجريدة "الخبر اليومية" بتاريخ 1 نوفمبر 2004، مترجم عن جريدة" لونوفيل اوبسيرفاتور" تعريفا مختصرا عن هذه المصلحة العسكرية :

« إن مخبر الـ (DOP) يتشكل من ضابط في غالب الأحيان برتبة نقيب وضابطين أو ثلاثة معاونين له، ومن أربعة أو خمسة ضباط صف،ومن خمسة عشر فردا من جنود الاحتياط ، وفي كل مفرزة ترجمان أو أكثر،وغالبا ما يكون هؤلاء من الأقدام السوداء أو من جنود الخدمة العسكرية المنتمين إلى نفس الفئة أو من الخونة والحركة،كان لأفراد المصلحة حرية اختيار الانتماء إليها خاصة بالنسبة للمستدعيين لأداء الخدمة العسكرية،كما كان نظام العمل بها يمتاز بالمرونة والحرية الواسعة،فالزي النظامي لم يكن إجباريا فضلا عن الامتيازات الطبيعية التي توفرها الصناديق الخاصة والهدايا بمناسبة رأس السنة الميلادية، وإطعام أفضل من غيره في الوحدات،وغياب مصالح الحراسة والخضوع،ونادٍ مجهز بحيث لا يشكو من أي نقص، كما كانت إقامات عناصر الـ (DOP) مكيفة مع طبيعة المهمة المسندة لهم،فهي في الغالب عبارة عن فيلات واسعة بعيدة عن أي مجمع

عسكري...،وكان أفراد هذه المصلحة من الضباط وضباط صف يحوزون "تكليفا بمهمة" دائما عليه الصورة وشريط ثلاثي الألوان،وينص التكليف على التسريح لحامله بنقل أشخاص من الجنسين في أي نوع كان من العربات،مع عدم

إلزامية الكشف عن هويتهم وكذا تبرير تواجدهم أو جهتهم للمراقبة العسكرية...» 3، وكان محتوى تعليمات المهمة في ظاهرها ينص على أنه يجب أن تتم الاستنطاقات بكيفية تكون فيها الكرامة الإنسانية مصونة،أما في باطنها يجب أن تتم الاستنطاقات بالكيّ بالسيجارة والتعذيب بالكهرباء ، والغطس في الماء.وأهم مراكز التعذيب بورقلة مايلي:

- **محتشد عين البيضاء أو (دار الدوب** DOP **)**: أنشأت السلطة الاستعمارية الفرنسية هذا الموقع العام 1957م لغرض يتم فيه تجميع الأشخاص المعتقلين من أبطال الثورة فدائيين ومسبلين وكل مواطن مشتبه فيه،حيث يتم استنطاقهم مع استعمال مختلف أساليب التعذيب،هذا المحتشد في شكل ساحة نصبت فيها مجموعة من الخيم الصغيرة مخصصة لإقامة الضباط المكلفين بالاستنطاق وخيمة كبيرة تتسع لحوالي 400 شخص خصصت للمعتقلين،وبعد سنة 1958م أزيل هذا المحتشد ومنذ ذلك التاريخ بقي المكان خاليا باستثناء بعض الأجزاء التي بنيت عليها مباني عمومية.

– مركز برج شانديز: يعرف أيضا باسم البرج الأحمر،ويقع في وسط ثكنة عسكرية بمدينة ورقلة في الجهة الجنوبية، تم بناؤه سنة 1885م، ويضم طابقين بهما قاعات للتعذيب والاستنطاق.

وبناءً على شهادات بعض المجاهدين التي اطلعنا عليها، والذين تعرضوا للتعذيب ،وعايشوا تعذيب البعض من رفاقهم، فإن أهم أصناف التعذيب تمثلت فيما يلي :

– التكبيل بسلاسل حديدية من الرجلين واليدين بخلاف (الرجل اليمنى مع اليد اليسرى،والرجل اليسرى مع اليد اليمنى).

– التعذيب بالحرق وذلك باستعمال شواظ قارورة غاز الخاص بالتلحيم ويستعمل حتى الموت وحتى يفصل اللحم عن العظم.

– التعذيب بالماء : وذلك في حالتين،الأولى: يكون الماء عكر وملوثا في حوض صغير يغطس فيه المعتقل لساعات طويلة لاستنطاقه،والثانية: عن طريق تمرير الماء بمضخة المياه عبر أنبوب حديدي يوضع في فم المعذب (بفتح الذال)حتى ينتفخ بطنه،وفي حالات ينفجر من شدة الضخ (ولكم أن تتصور الصورة البشعة).

– التعذيب بالتجريح وبتر الأعضاء وتكسير العظام.

– التعذيب بالضرب المبرح بحيث يتم وضع المعذب (بفتح الذال) بين لوحتين ويتم إطباقهما عليه لمدة طويلة بعد ذلك يسكب عليه الماء البارد وبعدها يضرب ضربا مبرحا على رجليه،وتتم عادة في فصل الشتاء.

– التعذيب بالطابوري: وهو حلقة حديدية يعلق المعذب(بفتح الذال) داخلها في السقف فيدخل الحديد في ظهره.

– التعذيب بالكلاب المدربة وذلك بتحريشها على السجين وهو عاري الجسد.

– التعذيب بالكهرباء حيث يطرح المعذب(بفتح الذال)أرضا مسلسلا من الرجلين واليدين وتلصق به أسلاك كهربائية في الإصبعين الكبيرين من القدمين،واليدين،والأذنين ، وذكر الرجل ،كلها توصل بآلة تشبه الرحى لها ذراع يديرها المعذب (بكسر الذال)، إذا أدارها ببطء تحدث صدمات كهربائية قوية للجسم ،وإذا أدارها بسرعة غاب المعذَّب عن وعيه.

وللحقيقة التاريخية فإن الجلادون بمركز الدوب(DOP) حاولوا استحداث أساليب جديدة أكثر فعالية،ويروي أحدهم أنه تم بذل مجهودات جبارة لعب الخيال فيها دور المساعد إلى أن تم إتقان هذا الفن، فلقد تم التنبه إلى أن المولد الكهربائي ذا المدواس ينشئ تيارا اشد من الذي يتولد من جهاز اللاسلكي المنقول، لم يكن الدوب (DOP) يتوفر على مثل هذا الجهاز،لكن عناصره كانوا يلجؤون إلى استعارته من مصالح الاتصالات الأقرب.

ثانيا/ نماذج من شهادات عن التعذيب في مراكز الاعتقال بورقلة:

ارتأينا أن نضيف إلى ما ذكرناه سالفا بعض الشهادات لمجاهدين لازالوا على قيد الحياة منهم من مورس عليه التعذيب،ومنهم شاهد رفقاه يعذبون حتى الاستشهاد، وفي نظرنا تعتبر هذه الشهادات ذات أهمية لكونها تسلط الضوء على جوانب من المعاناة التي كان يعيشها هؤلاء المعتقلون وغيرهم في هذه المراكز:

1- الشهادة المجاهد الحاج عمر بن بلخير طواهير4: هذا المجاهد اعتقل ثلاثة مرات كان أولها سنة 1948م بعد فوز مرشح حركة انتصار الحريات الديمقراطية بورقلة في انتخابات المجلس الجزائري،والثانية في أواخر ماي 1956م بتهمة إيواء بعض المجاهدين المطلوبين من طرف السلطة الاستعمارية،والثالثة في 9ديسمبر1957م بمحتشد عين البيضا، الذي بقي فيه إلى أوائل 1958م،ثم نقلوه رفقة 75 معتقلا إلى البرج الأحمر، وعن ظروف هذا الاعتقال ومجرياته،يروي قائلا:« لقد كانت حملة اعتقالات طالت جميع المشبوهين ممن كان لهم نشاط سياسي زمن الأحزاب، وفي هذا اليوم تم اعتقالنا نحن الخمسة من الرويسات وهم: أنا المتحدث ،وقريشي محمد ناجي،وعباس عباس،وقريشي احمد،وقريشي محمد بن قاسم، في ليلة باردة جملتنا السيارة العسكرية إلى خيام نصبت غرب عين البيضا وسط العروق،وفي هذا المعتقل شاهدنا هولا وعذابا لم نعرفه من قبل واليكم بعض صور التعذيب لرفقائي:

- في احد الأيام أيقضني احد رفاقي في السجن وقالو لي بأنهم ينادونك، فخرجت فأخذوني مباشرة إلى سيارة جيب(كات كات) وربطوني وابطحوني، فعلمت أنهم يريدون سحبي على الأرض،وقبل البدا في عملية السحب،جاء ضابط عسكري قدم من حاسي مسعود وسالهم عني؟، فأجابوه: هذا الذي حكمتم عليه بالسحب على وجهه، ولما سال عن اسمي: قلت طواهير عمر، فقال: لا لا، نحن أمرناكم بسحب محمد بن عمارة(من بسكرة)، فأطلقوني ثم جاؤوا بالمعني الذي مات تحت تعذيب الجر بالسيارة.

– "استشهد زبيدي عبد القادر بعدما اعتقله الجنود السكارى ليلة الميلاد، واستغل هؤلاء الجنود خلو المعتقل من المسؤولين المحتفلين بحاسي مسعود، فاخذوا يرفعونه فوق رؤوسهم ويتركونه يسقط ثم يسحبونه على وجهه، وقد فعلوا به ذلك عدة مرات وهم يتضاحكون حتى انقطع صوته، فعلم رفاقه في الخيمة انه استشهد.

– في نفس اليوم حملوا المجاهد شنين قدور وربطوه بالسلك الشائك إلى جدع النخلة وبقوا ليلة كاملة يضربونه بلوحة خشب ويعذبونه بأنواع العذاب،وعندما خرج احد رفاقه في الصباح للاستخلاء،وشاهده، فقال لزملائه: بأنه استشهد بعلامة انه رأى الدماء تسيل من رأسه،وأن أسنانه الذهبية تلمع من بعيد.

– في ليلة أخرى حفروا خمسة قبور ثم جاؤونا وسألونا إن كنا نريد الذهاب للمرحاض؟، فأجابهم مصطفى حفيان:بأنه لم يأكل منذ ثلاثة أيام، وأجبت انأ كذلك والحاج الأسمر أيضا،ولما وصلوا إلى العيد بن حروز(من متليلي)،خرج معهم فأطلقوا القيد(جمع قيود) من رجليه وبقيت يداه مقيدتين،وأوقفوه عند إحدى الحفر،وأمروه بالنزول لقضاء الحاجة، وآنذاك رموه بالرصاص على ظهره،ثم دفنوه في الحفرة.

– باحريز(كذا) (اباضي) كانوا يعذبونه بالضرب والصعق بالكهرباء، وكلما أوقفوا تعذيبه يقول لهم مهددا: والله والله ستخرجون من الجزائر مهزومين مدحورين، واستمر على ذلك لا هم تركوه، ولا هو توقف عن الكلام حتى قلنا لهم انه مجنون،فتركوه.

2 – **شهادة حول المرحوم المجاهد بن مالك محمد الحسان:** في إطار البحث عن الدور النضالي الذي قام به هذا المجاهد خلال الثورة التحريرية بمنطقة ورقلة،سلم لنا السيد حكوم سليمان مخطوطة حول حياة المجاهد بن مالك محمد الحسان،نقلها شفويا من بعض رفاقه، ومن ابن أخته الشيخ احمد بلعالم، وابنه محمد الحبيب سنة2001م،وعن ظروف اعتقالاته وتعذيبه يقول:« في سنة 1948م تم اعتقاله للتحقيق معه على خلفية نجاح ميلودي احمد بن عمار مرشح

حركة انتصار الحريات الديمقراطية في انتخابات المجلس الجزائري،وفي سنة 1959م اعتقل مرة أخرى بتهمة المساس بأمن الدولة الفرنسية،

وحكم علية بأربعة أشهر سجنا بمعتقل الدوب(DOP)،حيث نال ألوانا من العذب، بعدها نقل إلى المحكمة العسكرية بباتنة لمحاكمته،وأثناء المحاكمة تعمد نزع كل ملابسه في حركة سريعة أمام القضاة بحجة اطلاعهم على ثار التعذيب في أماكن حساسة من جسده، فاضطرب القضاة وأمروا بإخراجه ومن معه من قاعة المحكمة،فعجَّلوا بالحكم عليه وعلى رفاقه بأربعة سنوات سجنا مع وقف التنفيد...ومن آثار التعذيب عليه: سقوط جميع أسنانه،جروح بليغة في ذراعيه،حفرة في بطنه وظهره لازمته الفراش مدة طويلة إلى أن وافته المنية بتاريخ 30 افريل1964م».5

خاتمة:

خلاصة القول مما سبق ذكره، أنه على الرغم ما فعله الطغاة المستعمرون في حق الجزائريين إلا أن إرادة الله كانت أقوى،وإرادة التضحية والفداء كانت أجلى وأبهى، وأبى هؤلاء الأحرار الذين قال فيهم الله عز وجل ﴿ بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ إلا أن يمتطوا مذبح البطولة معراجا،ولا يهم من الشهادة إلا أن تحيا الجزائر حرة مستقلة،كما أن صفحات التاريخ لن تلغي ما فعله الاستعمار الفرنسي في الجزائر وما لحق بشعبه من جراء أساليبه الجهنمية في التعذيب والتنكيل والاغتصاب والإعدام،ولن تلغي كذلك صفحات التاريخ مراكز الاستنطاق والتعذيب، ولن ينسى المجاهدون الذين لازالت آثار التعذيب على أجسادهم كشواهد على جرائم بشعة ارتكبت في حقهم.

وزيادة على ما تمت الإشارة إليه في سياق الحديث عن التعذيب والقمع البوليسي ،هو أن السلطة الاستعمارية لم تكتفي بذلك،بل راحت تواصل سياستها القمعية ومشاريعها الاستعمارية في المنطقة، وخصوصا لماّ اشتدّ عود الثورة في المناطق الصحراوية، واكتشاف النفط فيها،غير انه في المقابل كان أهالي ورقلة بالمرصاد لهذه المشاريع الاستعمارية ، ولم يفوتوا الفرصة لتخليد موقفهم.

1- سعدي بزيان، **جرائم فرنسا في الجزائر**، الجزائر. دار هومة،2002، ص13.

2- احمد رضوان شرف الدين،« التعذيب: قراءة في جريدة المجاهد 1957-1962م»،**مجلة المصادر**، ع8،ماي2003، ص26

3-(مجهول)،« المفرزة العملية للوقاية DOP »،**الخبر اليومي**،1 نوفمبر 2004.

4- شهادة المجاهد الحاج عمر طواهير، المصدر السابق.

5- مخطوطة حول حياة المجاهد بن مالك محمد الحسان، نقلها السيد سليمان حكوم شفويا من بعض رفاقه، ومن ابن أخته الشيخ احمد بلعالم، وإبنه محمد الحبيب سنة 2001